سوسيولوجيا المعرفة.. تبويب ونقد

عقيل البندر[1]

الخلاصة

ترمي المحاولة الّتي تحث عليها سوسيولوجيا المعرفة (Sociology of knowledge) إلى إسقاط الأبعاد الاجتماعية على موضوع المعرفة، وتسعى إلى قراءة عملية التعرّف قراءةً ميدانيةً منبثقةً عن الخبرة والتجارب البشرية المتراكمة، ويؤكّد علم اجتماع المعرفة (سوسيولوجيا المعرفة) على أنّ المعرفة لا يمكن أن تتبلور من دون الأخذ بالمعطيات السوسيولوجية والبناءات الاجتماعية.

وقد تعدّدت الأطروحات الّتي مهّدت لظهور سوسيولوجيا المعرفة دون تسميتها، حيث كانت قد أسّست لفكرةٍ فحواها هو تأثير الواقع الخارجي على المعرفة والوعي، وعدم التركيز على المعطيات الذهنية والأوّليات العقلية فقط.

وتكمن مهمتنا في هٰذا المقال في الأرخنة لسوسيولوجيا المعرفة، ومحاولة استعراض فترات تطوّرها، ثمّ التحرّي عن مدياتها ومستوى علاقتها

(1) عقيل البندر، العراق، باحث في علم الكلام والفلسفة الإسلامية.
morady2@yahoo.com

بالإبستمولوجيا ونظرية المعرفة من خلال وضع أهمّ النظريات في مجموعة من الأنماط والسياقات لتحديد مستوى تلك العلاقة، وأخيرًا في الخاتمة سوف نتناول جملةً من أهمّ الانتقادات الّتي وُجّهت لعلم الاجتماع المعرفيّ.

لذا ستكون هٰذه المقالة بحثًا توصيفيًّا لعلم اجتماع المعرفة واستعراضًا لأهمّ الآراء فيه، ومن ثمّ معالجةً لأهمّ إشكاليةٍ فيه وهي الاعتماد على العنصر الاجتماعي في عملية التعرّف والكشف عن مأزق النسبية الّذي يواجهه، من خلال تناول جملة من الإشكالات الّتي ستطاله جرّاء اعتماده على الأسس والقواعد المتغيّرة.

الكلمات المفتاحية: السوسيولوجيا. الإبتسمولوجيا. علاقة المعرفة بالمجتمع. الوعى الجمعي. العقل الجمعي. النسبية.

المقدّمة

قد شهد القرن العشرون تطوّرًا لافتًا للأصول والقواعد والأطر الّتي تحكم علم الاجتماع المعرفي، ففي تلك الفترة ظهرت جملةٌ من الآراء والنظريات كرّست القول بتأثّر المعرفة بالعنصر الاجتماعي، وصارت تبحث مواضيع عديدةً تطرح المقيّدات الاجتماعية للمعرفة ودور العوامل الاجتماعية في طبيعة تشكيل العلم، فظهرت نزعةٌ ملحوظةٌ تدعو إلى الانطلاقة من المجتمع وما يحكمه من أفهامٍ ومعارف، بدلًا من الانطلاق من الفرد وما يحمله عقله وفكره من وعي مركوز. وتبلورت فكرة التأكيد على تقييم العلم والمعرفة على أساس الأسباب والدواعي الخارجية بدلًا من المنطق الداخلي، وراج الحديث عن ارتباط المعرفة بالمجتمع، والاعتقاد بأنّ عملية التعرّف ليست مجرّد عمليةٍ ذهنيةٍ نظريةٍ صرفةٍ، وضرورة استنطاق العوامل والعناصر

الخارجية الّتي تتمخّض عن البيئة والمجتمع لتبرير المعارف.

من هنا تشكّلت الحاجة إلى تأسيس علمٍ ومنهجٍ جديدٍ ومستقلٍ يحاكي هٰذه الأطروحات ويصوغها صياغةً منظّمةً ومتماسكةً، ويحاول أن يدرس تلك المقيّدات الاجتماعية والتعيّنات الخارجية، ويفصح عن مدى تأثيرها الحقيقي في المعرفة، ويبحث واقع إسقاطها على موضوع الوعي والعلم. وتمخّضت تلك الجهود عن ولادة سوسيولوجيا المعرفة أو علم اجتماع المعرفة.

والنقطة الأساسيّة الّتي تتبنّاها سوسيولوجيا المعرفة هي وصف العلاقة بين المعرفة والمجتمع، من هنا عُدّت أحد فروع علم الاجتماع الهامّة، وقسمًا رئيسيًّا من أقسامه يختصّ بالمعرفة وطبيعتها وأنواعها.

ونجد أنّ التعبير عن طبيعة تلك العلاقة وذٰلك الارتباط بين المجتمع والمعرفة والواقع الخارجي والوعي البشري قد تفاوت من رؤيةٍ إلى أخرى، فبعض النظريّات حاولت قراءة تلك العلاقة قراءةً تاريخيةً سرديةً تسعى إلى تعقب الأشكال المعرفية الّتي تحاكي المجتمع، وبعضها حاولت التعبير عنها بلونٍ من التأثّر اللازم بين الوعي والوجود الخارجي، في حين ذهبت بعض الآراء والنظريات في تفسير ارتباط المعرفة بالمجتمع إلى رؤيةٍ وصفت بأنّها أكثر تعصّبًا وحماسةً وانتصارًا للمجتمع، مؤدّاها أنّ المجتمع هو الّذي يخلق المعرفة ويصوغ عملية الفهم والتعرّف في الحياة البشرية.

ولٰكن رغم التماسك الّذي أظهرته سوسيولوجيا المعرفة وبعض نظريّاتها المتحمّسة للمجتمع، إلّا أنّها لم تخلُ من العديد من الانتقادات، أبرزها هو إقصاء المدارس المنطقية والفلسفية الأخرى الّتي أصّلت للمعرفة بعيدًا عن التأثيرات الاجتماعية، وحاولت تهميشها واستبدالها برؤية أكثر مادّيّةً وأرضيةً، وسعت إلى استبعاد أيّ دورٍ للمعرفة الماورائية والمتيافزيقية.

علم اجتماع المعرفة.. التعريف والحدود والمديات

سنذكر لاحقًا في الإطلالة التاريخية حول سوسيولوجيا المعرفة، أنّ ماكس شيلر (Max Scheler) هو من اصطلح على هٰذا العلم: "علم اجتماع المعرفة" (Sociology of knowledge)، مقتنصًا هٰذا العنوان من مقال لفيلسوف نمساوي في القرن العشرين كان يدعى ولهلم جيروزاليم (Wilhelm Jerusalem) (1854 ـ 1923)، فاشتغل شيلر على ذٰلك المقال وطوّره.

إنّ وضع الاصطلاح الّذي رافقه الطرح الأكاديميّ لمسائل سوسيولوجيا المعرفة والعمل على تنظيم أبحاثها واستقلالها عن سائر فروع علم الاجتماع ومسائله الأخرى، وهيكلتها في صورة علم مستقل يعكف على شرح المعرفة، وعلاقتها بالواقع الاجتماعي، وارتباط الوعي بالعناصر غير النظرية، دفع الباحثين في هٰذا الشأن للخوض في تعريفه وشرح المراد منه، والعناية ببحث هوية علاقة المجتمع بالمعرفة وحدود تلك العلاقة ومدياتها، وكذا التحرّي عن موضوع هٰذا العلم ومسائله، وهٰذا ما سنقف عليه في هٰذا العنوان من المقال.

تعريف علم اجتماع المعرفة (سوسيولوجيا المعرفة)

إذا ما أردنا أن نعثر على تعاريف بيّنة وواضحة لهٰذا العلم، فعلينا التنقيب عن ذٰلك في الكتابات الّتي نشرت في الفترة الّتي أعقبت وضع هٰذا الاصطلاح، أي منذ عشرينيات القرن الماضي فصاعدًا؛ وذٰلك لأنّ الفترات السابقة شهدت نظرياتٍ أوّليةً وجذورًا أساسيةً تعرّضت لطبيعة العلاقة بين الفكر والواقع الاجتماعي، وقد تناوله علماء الاجتماع في

طيّات بحثهم عن مشاريعهم الاجتماعية، دون أن يطرحوا ذٰلك تحت عنوان "علم اجتماع المعرفة" أو بيان ذٰلك بشكلٍ مستقلٍّ، فآراء دوركايم (David Durkheim) وماركس (Marx) وفرانسس بيكون (Francis Bacon)، ومن قبلهم ابن خلدون مثلًا كانت بصدد بيان دور المجتمعات ومكانة الواقع الاجتماعي الخارجي في بناء المعرفة والفكر، ومهمّة الوعي الجمعي في صياغة القناعات الباطنية، دون عنونته بعنوان "علم اجتماع المعرفة"، أو حتّى من دون نعته بالعلم.

بيد أنّ من أتى في فترة وضع الاصطلاح وتشييد العلم ذكر أنّه ـ كأحد أهمّ فروع علم الاجتماع الحديثة ـ يشتمل على بعدين أساسيّين هما قوامه وروحه: أحدهما البعد السوسيولوجي الاجتماعي، والآخر البعد الإبستمولوجي الذهني، والعلاقة الّتي تؤلّف بين هٰذين البعدين هي الّتي يمكن أن نطلق عليها نظرية أو علم اجتماع المعرفة، الأمر الّذي أشار إليه كارل مانهايم (Karl Mannheim) في "الأيديولوجيا واليوتوبيا": «إنّ سوسيولوجيا المعرفة بصفتها نظريةً تحاول أن تحلّل العلاقة بين المعرفة والوجود» [مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا، ص 309].

وبذٰلك قد تكون سوسيولوجيا المعرفة نقطةً تتقاطع عندها الفلسفة مع علم الاجتماع، ونقصد بذٰلك أنّ نظرية المعرفة ـ الإبستمولوجيا ـ (Epistemology)[1] هي أحد المباحث الثلاثة الرئيسة (الوجود والمعرفة

(1) لفظٌ مشتقٌّ من مقطعين يونانين: (episteme) بمعنى المعرفة، و(logos) بمعنى علم، والإبتسمولوجيا فرع من فروع الفلسفة يبحث في أصل المعرفة وبنيتها ومناهجها ومصداقيتها ومصادرها. [انظر: وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، ص 12]

والأخلاق) الّتي تبحث في الفلسفة عندهم، قد قام بعض علماء الاجتماع ببحثها ودراستها اجتماعيًّا، فصارت المعرفة موضوعًا يلتقي عنده علم الاجتماع بالفلسفة.

وعلى هٰذا فإنّ تعريف علم اجتماع المعرفة لا بدّ أن يكون في حدود هٰذين البعدين (الإبستمولوجي والسوسيولوجي) لا يخرج عمّا يرسمانه له من إطار، مستوعبًا في الوقت ذاته كلّ ما يُطرح هناك من مسائل.

إلّا أنّ وجهات النظر لدى القائلين والمهتمين بهٰذا العلم أنفسهم اختلفت في تفسير الوجود الاجتماعي وعلاقته بالمعرفة؛ وبسبب ذٰلك لا زالت سوسيولوجيا المعرفة تشكّل مادّةً خصبةً للبحث إلى يومنا هٰذا، وإن الدارسة فيها تشكّل قدرًا كبيرًا من الاختلاف، فمن جهةٍ يحجم بعض الكتاب والمؤلّفين في هٰذا العلم عند وضع أيّ تعريف محدّد لهٰذا العلم، في حين يخاطر البعض الآخر بوضع صياغاتٍ عائمةٍ وفضفاضةٍ في محاولةٍ لاستيعاب الكمّ الهائل والمتراكم من التراث المتعلّق بعلم الاجتماع المعرفي؛ لتحظى باهتمام من يروم البحث فيه كموضوع في دراسته. [انظر: السيد، علم اجتماع المعرفة، ص 43]

ورغم كلّ ذٰلك فقد تصدّى العديد من أرباب علم اجتماع المعرفة إلى تعريفه وتحديده، ولنبدأ بواضع الاصطلاح ماكس شيلر، حيث قال: «هو تحليلٌ للعلاقات الوظيفية المتبادلة والمتداخلة بين العمليات والبناءات الاجتماعية من جانبٍ، وأنماط أو نماذج الحياة الفكرية والعقلية مشتملةٌ على نماذج للمعرفة من جانبٍ آخر. دونما أولويّةٍ أو أسبقية منطقية تعزى إلى العقل» [انظر: المصدر السابق، ص 6؛ وانظر: توكّل، جامعه شناسى معرفت، ص 25].

وقد عبّر البعض عن قراءة شيلر للمعرفة: «إنّها لا توجد ـ بحسب شيلر ـ لذاتها أو لمجرّد المعرفة والتأمّل فقط، بل هي تهدف إلى الفعل دائمًا، وتقصد بناء الوجود الإنسانيّ؛ وعليهً ليست المعرفة علاقةً مستقرّةً بين الإنسان والوجود، بل ينبغي أن تفسّر على أنّها نوع السلوك المتكيّف الاجتماعي والتاريخي، بل والبيلوجي. [لاحظ: بدوي، موسوعة الفلسفة، ص 41 و42]

ويمكن إيجاز مراد شيلر من تعريفه المتقدّم وبيانه اللاحق للمعرفة أنّ مهمّة هٰذا العلم هي دراسة العلاقة المتبادلة بين المجتمع بما يتستوعبه من عوامل خارجيّةٍ مختلفةٍ من جهةٍ، وبين الفكر بما يحمله من أشكالٍ عقليةٍ ومعرفيةٍ متنوّعةٍ، من دون أن يُعترف للعقل بإدارة هٰذه العملية ولا للبناءات الاجتماعية بالحكومة على العقل.

ويأتي كارل مانهايم الّذي اعتنى ببيان سوسيولوجيا المعرفة (علم اجتماع المعرفة)، وأظهر اهتمامًا أكاديميًّا أكبر ليقول: «إنّها فرعٌ من أحدث فروع السوسيولوجيا ويمكن اعتبارها نظريّةً من جانب وبحثًا تاريخيًّا سوسيولوجيًّا من جانبٍ ثانٍ. فهي بصفتها نظريةً تحاول أن تحلّل العلاقة بين المعرفة والوجود، ولٰكنّها بصفتها بحثًا تاريخيًّا سوسيولوجيًّا تحاول أن تتعقّب الأشكال الّتي اتّخذتها هٰذه العلاقة خلال التطوّر الفكريّ للبشرية... إنّ سوسيولوجيا المعرفة تهدف إلى إيجاد معايير علميّةٍ (Workable Criteria) لتحديد العلاقات المتبادلة بين الفكر والعمل، وتسعى لتطوير نظريّةٍ خاصّةٍ تدور حول دلالة العوامل غير النظريّة (Non-theoretical factors) الّتي تؤثّر في المعرفة» [انظر: مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا، ص 309].

وذٰلك يعني أنّ علم الاجتماع المعرفيّ لا يعتني بالبحث النظري فقط،

كما هو حال نظريّة المعرفة الفلسفية، بل يتجاوز ذٰلك الطرح بخاصّيّةٍ جديدةٍ أخرى وهي خاصّيّة الطرح السوسيوتاريخي، عبر التحرّي والتنقيب عن العوامل الاجتماعيّة والتاريخيّة الكامنة وراء بعث المعرفة إلى الوجود الإنساني، وتحليل العلاقة الوظيفية بين المعرفة وأصولها الاجتماعية.

وعلى ضوء تعريف مانهايم فإنّ علم الاجتماع المعرفي يمكن أن يأخذ شكلين من البحث: الأوّل هو البحث التجريبي ومهمّته الوصف والتحليل البنيوي للطرق والأساليب الّتي يتحقّق بموجبها تأثير العلاقات الاجتماعية على الفكر. والثاني هو تحقيقٌ ودراسةٌ في نظرية المعرفة وفلسفة العلوم، حيث تكون مهمّة علم اجتماع المعرفة هنا هي التحرّي والتنقيب عن هوية العلاقة المتبادلة بين الواقع الاجتماعي والفكر ودور تلك العلاقة في صحّة المعرفة وصلاحها بحسب كارل مانهايم، والشكل الأوّل من البحث يعد بحثًا إمبريقيًّا [1] ميدانيًّا؛ باعتبار ما يقوم به علم الاجتماع من التحرّي الميداني في الحقائق الاجتماعية، وأمّا الشكل الثاني منه فهو بحثٌ إبستمولوجيٌّ نظريٌّ يضبط النتائج المتعلّقة بعلاقة الفكر بالواقع الاجتماعي.

هٰذا وقد أسهم جورج غورفيتش (Georges Gurvitch) بجهودٍ هامّةٍ في ميدان علم الاجتماع المعرفي، وشابه كثيرًا كارل مانهايم في بسط الاصطلاح وشرحه وتعريفه من خلال طرحه الأكاديمي المبوّب في كتابه "الأطر الاجتماعية للمعرفة"، وقد جاء في تعريفه لهٰذا العلم بأنّه: دراسة العلاقات الّتي يمكن أن تنهض بين الأنواع والأشكال المختلفة للمعرفة، وبين الأطر والمحدّدات الاجتماعية. [انظر: غورفيتش، الأطر الاجتماعية

(1) مصطلحٌ أجنبي من أصل يوناني يراد منه النزوع التجريبي للتعاطي مع المعرفة.

للمعرفة، ص 23]

واعتبر غورفيتش أن الأطر والمحدّدات الاجتماعية هٰذه هي الّتي تنبثق عنها البنى الاجتماعية الّتي تعدّ النواة المركزية للدراسة والبحث في هٰذا العلم؛ نظرًا للعلاقة الوثيقة الّتي رسمها بين المعرفة وبين الأعمال الحضارية والتعقيدات الاجتماعية. [المصدر السابق]

هٰذا وقد شرح الأخير الأطر الاجتماعية الّتي جاءت في التعريف المتقدّم بأنّها تشمل التجليات الاجتماعية والتجمعات الخاصّة والتكتّلات في الدول والكنائس والطبقات الاجتماعية والمجتمعات الشمولية من شتّى النماذج. [المصدر السابق، ص 28 و23]

وقد قرّب كارل بوبر (Karl Popper) (1902 ـ 1994) سوسيولوجيا المعرفة الّتي وصفها بنظرية الحتمية الاجتماعية للمعرفة العلمية [1] بما يلي:

إنّ التفكير العلمي لا يقع جزافًا في الفراغ، بل يحدث في جوٍّ مشروطٍ اجتماعيًّا ـ بحسب تعبيره ـ وذٰلك التفكير سيكون متأثّرًا بشكلٍ قهريٍّ بعناصر لا واعيةٍ أو بعناصر دون الوعي. [بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، ج 2، ص 308]

---

(1) إن المعرفة العلمية هي بناء منظم من الأفكار والتصورات، يبدأ من الواقع وينتهي إلى تفسيره، ويسلك العالم في هٰذه المعرفة طريقًا خاصًّاً للحصول عليها، مستندًا إلى مجموعة قواعد عامّة تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة، وهٰذه القواعد هي ما يعرف بالمنهج العلمي (S. Metho). والمعرفة العلمية تقابل المعرفة العامّيّة التي تتصف بالإدراك الساذج الّذي يحصل عند تعاطي الإنسان العادي مع الواقع الخارجي.

ويضيف بوبر شارحًا لذٰلك الاشتراط الاجتماعي أن الموطن الاجتماعي الخاص بالمفكّر يحدد النظام الكلي للآراء والنظريات الّتي تبدو له صحيحةً أو بدهيّةً لا يطولها الشكّ. [المصدر السابق، ص 309]

ومن خلال التعاريف السابقة لسوسيولوجيا المعرفة يتبيّن أنّ التحليل والدراسة الّتي ينهض بها هٰذا اللون من السوسيولوجيا يتّصل بالحياة الفكرية وطرائق المعرفة وأنساق الوعي، وبذٰلك تكون أمام علم الاجتماع المعرفي مساحة واسعة للمناورة البحثية والدراسة العريضة، لا تقتصر على لون واحد من البحث والتقصّي.

وهنا تكمن مهمّة الباحثين في هٰذا العلم، فإنّ تحديد مجال سوسيولوجيا المعرفة ومداها ضروريٌّ جدًّا في الوصول إلى نتائج بحثيةٍ مجديةٍ؛ لأنّ الحديث عن هٰذا العلم بهٰذه السعة وهٰذا الشمول يصعب الوصول من خلاله إلى تلك النتائج. أجل، ربما يمكن بحث المسائل والآراء والنظريّات الّتي تمّ التعرّض لها وتحليلها ودراستها من قبل بعض الباحثين في سوسيولوجيا المعرفة، والّتي تشمل ما ذكر عنهم من مسائل ومواضيع، ولٰكن نجد من مهمّتنا في هٰذا المقال المختصر تحديد مداخل هٰذا العلم ومخارجه وفرز مسائله وغربلتها، وكذٰلك رؤاه؛ لتكون هٰذه الدراسة منتجةً؛ وعليه سنحاول فيما يلي الحديث عن جملةٍ من الأطر والسياقات الّتي قد يمكن من خلالها فرز بعض الآراء والنظريات الّتي وردت في علم الاجتماع المعرفيّ.

يشار إلى أنّ من يطالع الكتب والمصنّفات المتعلّقة بسوسيولوجيا المعرفة يجد تداخلًا في صياغة تعريفه واستعراض مجاله وحقله البحثي وأهدافه حتّى، فقد رأى بيتر برجر (Peter Berger)، وتوماس لكمان (Thomas

Luckmann)[*] أنّ علم اجتماع المعرفة يمكن تعريفه من خلال تحديد مجاله وأهدافه. وذهبا في بيان ذٰلك إلى أنّه علمٌ لا يدرس الأفكار بمعناها التقليديّ، وإنّما يدرس كلّ الظواهر الّتي تندرج تحت اصطلاح المعرفة. وليس هٰذا فحسب، بل يعتبران أنّ هٰذا العلم يدرس العملية الاجتماعية الّتي تفضي إلى ظهور كمٍّ من المعارف الّتي يفترضها واقعًا اجتماعيًّا معيّنًا. [انظر: المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، دراسة حالةٍ في علم اجتماع المعرفة (مجلّة عالم المعرفة)، ص 329 و330]

ومن أجل تشخيص المجال والإطار العامّ الّذي تدور فيه أبحاث علم الاجتماع المعرفيّ لا بدّ من قراءة بعض كلمات روّاد هٰذا العلم ومؤسسيه، الّتي تتعلّق بطبيعة العلاقة بين المعرفة والمجتمع من خلال رسم تلك النصوص والكلمات في أطرٍ وسياقاتٍ معيّنةٍ، ولٰكن قبل البدء ينبغي الإشارة إلى أمرٍ هامٍّ نجده نتيجةً هامّةً تتمخّض عن تحديد ذٰلك المجال العامّ، وثمرةً من ثمار تشخيص أطر هٰذا العلم، وهٰذا الأمر هو ضرورة معرفة العلاقة بين الإبستمولوجيا، وهي نظريّة المعرفة الّتي تبحث في مصادر وهويّة المعرفة وانطباقها على الواقع من عدمه، وبين سوسيولوجيا المعرفة الّتي مرّ الحديث عن معناها وتعريفها أيضًا، الأمر الّذي سوف نتحدّث عنه الآن.

نشأة علم اجتماع المعرفة وتطوّره

ولد علم اجتماع المعرفة من الناحية النظرية في أحضان علم الاجتماع

(*) عالمان أمريكيان من أصل نمساوي، لهما مساهمات في علم الاجتماع واللاهوت، ولهما العديد من المؤلفات في الدين والاجتماع وعلم اجتماع المعرفة والثقافة.

العامّ وكنفه، وهو فرعٌ من فروعه، فإنّ سوسيولوجيا المعرفة (علم اجتماع المعرفة) قديمةٌ قدم علم الاجتماع ذاته [غورفيتش، جورج، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ص 54]، وهو نظامٌ للدراسة ناجمٌ عن مقتضيات التطوّر الاجتماعي كما عبّر عن ذٰلك كارل مانهايم. [مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا، ص 346]

إنّ المعرفة البشرية أحد المفاهيم الّتي تُبحث في علم الاجتماع العامّ، ولمدى أهمّيّتها استقلّت بالبحث عن بقيّة الموضوعات المبحوثة هناك، هٰذا ويمكن الإشارة هنا إلى أنّ سوسيولوجيا المعرفة ورغم ارتباطها الوثيق بعلم الاجتماع، إلّا أنّها يمكن أن تكون علمًا اجتماعيًّا ـ فلسفيًّا؛ لأنّها تقع عند نقطة تقاطع علم الاجتماع مع الفلسفة، وهٰذه النقطة هي المعرفة الاجتماعية، فالمعرفة موضوعٌ فلسفيٌّ تمّ بحثه ودراسته اجتماعيًّا، وهٰذه هي نقطة الجدة في سوسيولوجيا المعرفة الّتي تسعى إلى إخضاع سائر المحدّدات الاجتماعيّة من معتقداتٍ وأيديولوجياتٍ ومعارف إلى البحث والتقصّي الاجتماعي، من هنا اعتبرت واحدةً من السوسيولوجيات الخاصّة الّتي تتمحور في ضمن علم الاجتماع العام.

ومن الناحية البحثية يمكن أن يشمل هٰذا العلم سائر أنواع المعارف الّتي لها صلةٌ بالطابع السوسيولوجي، ويمكن أن تمتدّ حدوده لمدياتٍ عريضةٍ من نماذج الفكر والوعي الإنسانيّ، وسائر أنواع المعتقدات والأيديولوجيات؛ ليشكّل برنامجًا يستوعب جملةً من الأسئلة والتوجّهات المنهجيّة غرضها دراسة الأطر الاجتماعيّة للمعرفة، تتمحور مهمّتها حول تقييد تلك الأنواع من المعارف بما فيها نظريّة المعرفة. [انظر: بورّيكو، المعجم النقديّ لعلم الاجتماع، ص 529]

لذا يقول ماكس شيلر: «إنّه لا يوجد أدنى شك في الطابع السوسيولوجي لكلّ معرفةٍ علميّةٍ، ولكلّ أشكال الفكر والحدس والمعرفة» [دوبوا، مدخل إلى علم اجتماع العلوم، ص 36].

من هنا يمكن القول إنّ مديات البحث والتحرّي الّتي تدور فيها سوسيولوجيا المعرفة يمكن أن تشمل نواحي كثيرةً من أشكال الفكر والمعرفة، ولا تقف عند حدٍّ ما دام الطابع السوسيولوجي ـ بحسب تعبير شيلر ـ حاضرًا في التعاطي مع تلك الأشكال.

ومع اهتمام روّاد علم الاجتماع ومؤسّسيه كابن خلدون وأوغست كونت (Auguste Comte) وكارل ماركس وسان سيمون (Saint-Simon) وكوندورسيه (Nicolas de Condorcet) وإميل دوركايم وأمثالهم بعلم الاجتماع المعرفي، وحديثهم المفصّل عن طبيعته ومسائله، إلّا أنّ أكثر جهودهم علاوةً على أنّها مختلفةٌ في صياغة طبيعة العلاقة بين الوعي والواقع وبين الفكر والمجتمع، فهي أيضًا لم تأتِ بشكلٍ مستقلٍّ عند الحديث عن علم الاجتماع العامّ ونظرياته وقضاياه الأساسية.

ومن زاوية تاريخية معاصرة يعود ظهور علم اجتماع المعرفة إلى عشرينيات القرن المنصرم على يد ماكس شيلر بحسب ما اشتهر، فقد استخدم مصطلح "سوسيولوجيا المعرفة" سنة 1924، ووضع كتابًا يحمل نفس العنوان. وبيّن الموضوع الرئيسي لهذا العلم، وهو دراسة الأصول الاجتماعية للأفكار، وكشف العلاقة بين الأفكار والبيئة الاجتماعية، والفترة التاريخية الّتي تبلورت فيها الأفكار، ومدى تأثير الأفكار في الواقع الاجتماعي. [انظر، السيد، علم اجتماع المعرفة، ص 45 ـ 46؛ گروهی از نویسندگان، جامعه شناسی معرفت، ص 25]

ويمكن تقسيم تطور هٰذا العلم ونموّه إلى مرحلتين: الأولى: مرحلة النشأة والانطلاق والريادة، والثانية: مرحلة التأسيس والتبلور، ففي المرحلة الأولى طرحت جملةٌ من الأفكار والرؤى المتعلّقة بربط الفكر والمعرفة بالواقع والمجتمع، من دون أن تبحث بوصفها علمًا ونظريّةً مستقلّةً، ومن أبرز روّادها عبد الرحمٰن ابن خلدون وأوغست كونت وكارل ماركس وإميل دوركايم، وفي المرحلة الثانية ظهرت هٰذه الأفكار والرؤى بشكلٍ أجلى وأعمق وأكثر تبويبًا وتفصيلًا، إضافةً إلى نعتها بصفة العلم والنظرية بشكل مستقل، ومن أهمّ رموز هٰذه المرحلة ماكس شيلر وكارل مانهايم وجورج غورفتش.

هٰذا وقد تعرّض حكماء المسلمين سابقًا إلى أثر العنصر الاجتماعي على المعرفة، وعنونوا ذٰلك بالقضايا المشهورة بين الناس، وعرّفوها: بأنّها «الآراء الذائعة عند جميع الناس أو عند أكثرهم، أو عند علمائهم وعقلائهم، أو عند أكثر هٰؤلاء، من غير أن يخالفهم فيها، غيرهم ولا واحدٌ منهم، مثل كون برّ الوالدين واجبًا، وشكر المنعم حسنٌ وكفره قبيحٌ، أو المشهور عند أهل كلّ صناعةٍ أو عند المشهورين بالحذق منهم، مثل المشهور عند الأطبّاء أو الحذّاق منهم» [الفارابيّ، المنطقيات، ج 1، ص 19].

وقد فرّقوا بين المشهور الأوّليّ الّذي يحكم به العقل بعد النظر إلى قناعات العقل نفسه ومركوزاته من دون النظر إلى الانفعالات والدواعي الخارجة عنه، والمشهور غير الأوّليّ الّذي يحتاج العقل حتّى يحكم به إلى انضمام وسائط خارجيّةٍ أخرى، يقول ابن سينا: «والمشهورات أعمّ من الأوّليّات. فكلّ أوّليٍّ مشهورٌ، وليس كلّ مشهورٍ بأوّليٍّ» [ابن سينا، الشفاء (المنطق)، ص 453].

والقضايا المشهورة عندهم حتّى لو كانت صادقةً فهي لا توقع اليقين بالذات، بل إنّ تصديقها تصديقٌ مقاربٌ لليقين، فيكون يقينها يقينًا عرضيًّا وليس ذاتيًّا، وبسبب تواطؤ الاعتراف بها بين الناس قد تشتبه بينها وبين الأوّليّات اليقينيّة [الفارابي، المنطقيّات، ج 1، ص 267 و268]؛ ولأجل التفريق بينهما فلا بدّ أن يجرّد الإنسان نفسه عند الحكم عن كلّ دواعي وأسباب الشهرة المتقدّمة، ويعرض على نفسه حينئذٍ طرفي القضيّة، فإن كان نفس حضورهما يوجب حكم العقل بتلك النسبة كانت القضيّة أوّليّةً، وإلّا كانت مشهورةً. [العلّامة الحلّيّ، القواعد الجلية في شرح الرسالة الشمسية، ص 401 و402]

ولمّا كان مستوى حجّيّتها ما ذكرناه، كان محلّ هٰذه القضايا صناعة الجدل، وليس صناعة البرهان، قال الشيخ الرئيس: «والجدل يعتمد على المشهورات، وهي مقدّمات أحكامها صادرةٌ عن القوّة الوهمية لا عن الضرورة العقلية، فهي من خارج العقل؛ لأنها تؤخذ على سبيل تسليمٍ مشتركٍ فيه» [ابن سينا، منطق الشفاء، ص 63 و64].

لذا يمكن القول إنّ المعرفة الصادرة عن المجتمع هي عبارةٌ عن قضايا مشهورة ذائعة بين الناس تنفع في صناعة الجدل لموادّ الخطاب والتحاور، إلّا أنّها لا تعني المعرفة اليقينية البرهانية الّتي تقطع تساؤل العقل وتمنع من بحثه عن قضايا أبعد غورًا وأعمق نظرًا، فذٰلك لا يتحقّق بحسب ما يراه الحكماء إلّا باستخدام القضايا الأوّلية الّتي لا تتأثّر بالواقع الخارجي الاجتماعي الّذي اكترث له السوسيولوجيون أيّما اكتراثٍ، كما سيتّضح لاحقًا.

العلاقة بين الابستمولوجيا وسوسيولوجيا المعرفة

قد تكون أهم ثمار البحث في مسائل علم الاجتماع المعرفي (سوسيولوجيا المعرفة) هو التحرّي عن هوية العلاقة بينه وبين الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة)؛ إذ إنّ أهمّ نتائج تحديد مجال هٰذا العلم ومدياته من الناحية المعرفية هو معرفة علاقته وصلته بالإبستمولوجيا، والكشف عن الحجم الحقيقي لسوسيولوجيا المعرفة مقابل الإبستمولوجيا، فهل لعلم اجتماع المعرفة أن يحلّ محلّ الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة؟ وهل يستطيع أن يناقش موضوع شرعية المعرفة وصدقها؟ أم أنّ دوره ينبغي أن يقتصر على التحليل والدراسة والتحرّي عن طبيعة العلاقة بين الفكر والواقع الخارجي والاجتماعي؟ وكيف يتسنّى لسوسيولوجيا المعرفة حديثة النشأة أن تقصي أو تقزّم دور نظرية المعرفة العريقة؟ وأين تكمن فائدة سوسيولوجيا المعرفة بالنسبة إلى الإبستمولوجيا وما هو مستوى تلك الفائدة وتأثيرها؟ وإذا كان هناك نوعٌ من استقلال أحد العلمين عن الآخر، فهل العلاقة بينهما تبادليةٌ جدليةٌ، أم هي علاقةٌ متنافرةٌ عديمة الصلة؟

ويمكن أن تتضح الإجابة عن هٰذه الأسئلة من خلال استعراض جملة من النصوص الّتي أسهمت في بلورة هٰذا العلم، وساعدت في صياغة قواعده؛ من أجل الوقوف على الآراء الّتي جاء بها المنظّرون لهٰذا العلم، وحتّى تتّضح الإجابة وتظهر ثمار تحديد إطر تلك النصوص ومجالاتها، يمكن تصنيف تلك الكلمات والنصوص على جملةٍ من الأطر والسياقات، وهي على النحو التالي:

الإطار الأوّل: البعد التاريخي التحليلي وتفسيره لعلاقة المعرفة بالواقع الاجتماعي

يظهر من قراءتنا لجملةٍ من النصوص الّتي تعرّضت لهٰذا العلم وجود جانب تاريخي سردي في تناولها لأبحاثه ومسائله، عندما تجلّى في استعراض

الحكايات والقصص الّتي تمرّ على الأمم والشعوب السالفة، والّتي تحمل جملةً من الدلالات التاريخية من نموّ بعض الحواضر والمدن وازدهارها إلى ضمورها واضمحلالها، وكذٰلك ملاحقة الأشكال الّتي مرّت بها المعرفة عبر التاريخ البشري، وقد حاولت تلك النصوص إسقاط تلك الدلالات على علاقة المعرفة بالواقع الاجتماعي، وصلة موضوع الوعي بالمجتمع، وذٰلك من دون التعرّض إلى قضية مصدرية المعرفة وصدقها أو قيمتها.

الأمر الّذي يظهر من بعض عبارات ابن خلدون في حكايته عن رحلة البداوة والحضارة وازدهار العلم والمعرفة في بعض البقاع واندثارهما في غيرها، يقول ابن خلدون: «فلمّا خربت الأمصار (العراق وخراسان)، وذهبت منها الحضارة الّتي هي سرّ الله في حصول العلم والصنائع، ذهب العلم من العجم جملةً لما شملهم من البداوة، واختصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة» [ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، الباب السادس، الفصل الثالث والأربعون، ص 749].

ويقول في موطن آخر: «إنّ العلوم إنّما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، والسبب في ذٰلك أنّ تعليم العلم كما قدّمناه من جملة الصنائع، وقد كنّا قدّمنا أنّ الصنائع إنّما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلّة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة» [المصدر السابق، ص 548].

نعرف من هٰذا أنّ الحقب التاريخية الّتي تنصرم عن مصرٍ من الأمصار أو أمّةٍ من الأمم بعد ذهاب العمران منها يؤدّي إلى انحسار العلم والمعرفة، بخلاف الأمم والشعوب والبلدان الّتي تحظى بعمرانٍ وازدهارٍ ونموٍّ، فإنّ العلوم والمعارف تزدهر وتنتعش فيها.

وظهر البعد التاريخي أيضًا في كلمات كارل مانهايم عند حديثه عن أنماط البحث في سيوسيولوجيا المعرفة ـ والّتي مرّت الإشارة إلى بعضها سابقًا ـ حيث عبّر عن أنّ البحث في هٰذا العلم يمكن أن يكون على نحوين: أحدهما بحث نظري مهمّته تحليل العلاقة بين المعرفة والوجود، وثانيهما بحث سوسيوتاريخي، دوره تعقّب الأشكال الّتي اتّخذتها هٰذه العلاقة خلال التطوّر الفكري للبشرية. [مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا، ص 309]

وقال أيضًا: «تسعى سوسيولوجيا المعرفة إلى تفهّم الفكّر في بيئته المادّيّة الملموسة في الواقع الاجتماعي التاريخي الّذي يبرز منه بتدرّجٍ بطيءٍ جدًّا الفكر الفردي المتميّز» [المصدر السابق، ص 84].

ومن الواضح أنّ حديث مانهايم عن هٰذا الجانب من علم اجتماع المعرفة كان بعيدًا عن تقييم المعرفة والخوض في صدقها ومصدرها، بل ركّز فيه على تتبع التطوّر التاريخي للمعرفة ودراسة أشكال العلاقة المتعاقبة بين المعرفة والوجود الخارجي عبر تارخ البشرية الفكري. على خلاف ما سيأتي من بعض نصوصه في مواطن أخرى من مستوى تأثّر هٰذا العلم بالواقع الاجتماعي، وهو ما سيأتي الحديث عنه.

الإطار الثاني: علاقة البعد الاجتماعي بشكل المعرفة وهيكلها دون جوهرها ومحتواها

وهناك لون آخر من النصوص تحدّثت عن شكل المعرفة وهيكلها وتناولت الأطر الاجتماعية الّتي تحيط بالمعرفة، وقامت بدراسة ارتباط أشكال المعرفة وأنماطها بالإطارات والقوالب الاجتماعية المتعلّقة بها، وقد آمنت تلك النصوص بضرورة التعاون بين العقل الّذي يعد الدعامة الأساسية لنظرية المعرفة (الإبستمولوجيا) وبين الواقع الاجتماعي الّذي يعدّ العمود الفقري الّذي يقوم عليه علم الاجتماع المعرفي (سوسيولوجيا المعرفة)، وقد

رافق هٰذه النصوص إبراز ضرورة عدم طغيان أحدهما على الآخر ولا أسبقية بينهما، معتبرةً أنّ سوسيولوجيا المعرفة تقف عند حدود دراسة الأشكال المعرفية المرتبطة بالإطارت والمحدّدات الاجتماعية، تاركةً لنظرية المعرفة والفيلسوف الحديث عن قيمتها ومصدرها وصلاحيتها.

ويمكن استظهار هٰذا النمط من النصوص من كلمات ماكس شيلر الّذي وضع اصطلاح "سوسيولوجيا المعرفة"، وكذٰلك الكلمات الّتي جاءت عن جورج غورفيتش، فقد عبّرا في تعريفهما لعلم اجتماع المعرفة عن أنّ مهمّته دراسة العلاقة بين أشكال الحياة الفكرية والعقلية الّتي تحتوي على نماذج المعرفة وأنماطها، وبين القوالب والأطر الخارجية والاجتماعية للمعرفة، دون الولوج إلى محتوى الأفكار وباطن المعارف. [انظر: السيد، علم الاجتماع المعرفة، ص 6؛ توكّل و ديگران، جامعه شناسى معرفت، ص 25؛ غورفيتش، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ص 14 و15]

إلى جانب ذٰلك فقد رأى شيلر وغورفيش أنّ مهمة هٰذا العلم ما دامت تقتصر على تحليل العلاقة بين الأشكال المعرفية والأطر الاجتماعية المحدّدة، فهي لا تبرر لهٰذا العلم الدخول على خصوصية نظرية المعرفة ومهمّتها، وجعله سابقًا للعقل في مصدرية المعرفة وقيمتها، يقول غورفيتش: «يفترض بعلم اجتماع المعرفة صبّ جهوده على أنواع المعارف الأشدّ رسوخًا في الواقع الاجتماعي وفي دوّامة بُناه، كالمعرفة الإدراكية والعالم الخارجي ومعرفة الآخر والمعرفة السياسية والمعرفة التقنية، وأخيرًا معرفة الحسّ السليم» [غورفيتش، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ص 19].

ويقول غورفيتش: «إنّ استخلاص أصوليةٍ (= أبستمولوجيا)» [انظر: المصدر السابق، ص 25، الهامش] معيّنةٍ من علم اجتماع المعرفة تعتبر ضارّةً بقدر ما يصار إلى ربط مصير علم اجتماع المعرفة باتّخاذ موقفٍ

فلسفيٍّ خاصٍّ» [المصدر السابق، ص 17].

وقد بيّن سبب ذٰلك بقوله: «لأنّ التفسير في علم اجتماع المعرفة لا يجوز أبدًا أن يتخطّى إرساء الترابطات الوظيفيّة المباشرة في البنى الاجتماعيّة» [المصدر السابق].

الإطار الثالث: تأثّر نظريّة المعرفة بالعامل الاجتماعيّ وتقيّدها به

هناك مجموعةٌ من الآراء تحدّثت عن مدًى أبعد من النمطين السابقين، وهو أنّ المعرفة يمكن أن تتأثر وتتقيد بالعامل الاجتماعي، ويمكن أن يكون كارل مانهايم أفضل من عبّر عن ضرروة إدخال نتائج سوسيولوجيا المعرفة في الإبستمولوجيا، وتقييد العقل في نظرية المعرفة بما وصل إليه علم الاجتماع المعرفيّ من نتائج ميدانية بعبارات صريحة ودالّة، من هنا علينا أن نعود إلى نصوصه مرّةً أخرى.

يقول مانهايم: «إنّ طبيعة منهج التعامل وبنيته مع أوضاع الحياة، وتركيبة الشخص نفسه بيلوجيًّا وتاريخيًّا واجتماعيًّا، مضافًا إلى مكانة المفكّر ومركزه، تؤثّر كلّها في نتائج الفكر كما تؤثّر على مفهوم الحقيقة الّذي يتمكّـن هٰذا الكائن الحيّ من تكوينه باستعمال نتائج الفكر» [انظر، مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا، ص 337].

وقدّم كارل مانهايم سوسيولوجيا المعرفة بوصفها نظريّةً لـ "التحديد الوجودي للمعرفة" وحقيقةً ملموسةً، بتقريب: «إنّ عملية التعرّف لا تنمو في واقع الأمر تاريخيًّا وطبقيًّا لقوانين ذاتيةٍ أساسيةٍ، وإنّها لا تنجم عن طبيعة الأشياء أو عن احتمالاتٍ منطقيةٍ صرفةٍ، وإنّها غير مدفوعةٍ بديالكتيك داخليٍّ، على العكس أن ظهور فكرةٍ فعليةٍ وتبلورها يتأثّر في نقاطٍ حاسمةٍ عديدةٍ بعوامل غير نظريّةٍ ـ وجودية ـ شديدة التنوّع»

[المصدر السابق، ص 312].

ويضيف مانهايم أنّ هٰذا التحديد الوجوديّ للفكر لا بدّ أيضًا أن يعدّ حقيقةً إذا كان لتأثير هٰذه العوامل الوجودية على المحتوى الملموس للمعرفة أهميةٌ كبيرةٌ، وإذا كان لها علاقةٌ ليس بأصل الأفكار وحسب، بل تتجاوز ذٰلك وتتغلل في شكل تلك الأفكار ومحتواها. [المصدر السابق؛ وقد جاء مانهايم باصطلاح "منظور الإنسان المفكّر" ليستعيض به عن اصطلاح الأيديولوجيا. انظر: المصدر السابق، ص 311]

إنّ مانهايم لا يعني بطرحه هٰذا أن يُحِلّ علم الاجتماع المعرفيّ محلّ الإبستمولوجيا و"فلسفة العلوم" [المصدر السابق، ص 328] بحسب تعبيره، أو أن تقوم سوسيولوجيا المعرفة بما تقوم به فلسفة الفكر، بل يريد القول إنّ الأخيرة قد توصّلت إلى اكتشافات هامّة لها أكثر من مجرّد صلة واقعية بالمعرفة، وهي معطيات لا يمكن غضّ الطرف عنها إلّا بعد أن يعاد النظر في بعض تصوّرات الإبستمولوجيا وتحيزاتها.[المصدر السابق]

وبذٰلك انتهى مانهايم إلى أنّ النتائج الّتي تمّ التوصل إليها في بحوثٍ سوسيولوجيا المعرفة وتحرّياتها يمكن أن تؤثّر في الإبستمولوجيا أو نظرية المعرفة، بما تتحلّى به تلك التحرّيات من ملاحظةٍ واختبارٍ، وما توصّلت إليه من اكتشافات لها علاقة حقيقية بالمعرفة ونتائج الفكر، وهي اكتشافات لا يمكن إشباعها بشكلٍ كافٍ ـ حسبما يرى ـ إلّا من خلال إعادة النظر في بعض التصوّرات والارتهانات الخاصة بنظرية المعرفة. [انظر: المصدر السابق، ص 327 و328]

الإطار الرابع: حلول السوسيولوجيا المعرفية محلّ الإبستمولوجيا

لقد كان للمدرسة الألمانية والمدرسة الفرنسية في تشييد علم اجتماع

المعرفة وتطويرها، وإنّ من أبرز من أسهم من المدرستين في تأسيس الجذور الأولى لهٰذا العلم هما كارل ماركس في ألمانيا، وإميل دوركايم في فرنسا، فقد أرست هاتان المدرستان الجذور الأولى لسوسيولوجيا المعرفة هناك.

أجل، فبعد أن آمن ماركس بأسبقية الوجود المادّيّ للأشياء لصورها وأشكالها، وتأسيس مذهبه العريض في المادّيّة التاريخية، معتبرًا الوجود الاجتماعي هو الّذي يحدّد الوعي والفكر [ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ص 3]؛ أكّد أنّ المقولات ليست خالدةً، بل إنّها تتغيّر وتتبدّل بحسب الظروف الاجتماعيّة والمتغيّرات المادّيّة، معطيًا أولويّةً عريضةً للتاريخ والاقتصاد في تشكيل مقولات الفكر ، وعليه يكون للبناء الاقتصادي والطبقي دورًا حاسمًا في تشكيل التصورات والأفكار، فليس هناك عنده غير الكائن الواعي، مؤلّفًا وحدة كلّيّةً تعمل على تطوير هٰذا الوعي في صيرورةٍ مستمرّةٍ. [انظر: الجبوري، علم اجتماع المعرفة عند ابن خلدون، ص 114؛ علي سالم، قراءةٌ في نظرية المعرفة عند كارل ماركس، ص 98 و99]

ونلاحظ هنا تخطّيًا واضحًا من قبل الفلسفة الماركسية للإبستمولوجيا ونظرية المعرفة، واستبدالها بسوسيولوجيا معرفيةٍ ماديةٍ، فبدلًا من أن تكون الإبستمولوجيا شريكةً فاعلةً لعلم الاجتماع في رفد المجتمع بالمعرفة، قطع ماركس كلّ سبل الوصال بينهما، واعتبر أن المجتمع وصراع طبقاته هو الكفيل بخلق الوعي والمعرفة، دون سواه من مقولات الفكر الّتي يتطارحها الفلاسفة.

إنّ الحقل الّذي رسمه كارل ماركس للمعرفة هو استغناءٌ واضحٌ عن نظرية المعرفة التقليدية وعبورٌ للدائرة الّتي رسمتها حتّى سوسيولوجيا المعرفة

الّتي تمسّكت ببعض أطر الإبستمولوجيا وقواعدها، ونقضٌ لعقد التعاون بينهما، «فالوعي لا يمكن قطّ أن يكون شيئًا آخر سوى الوجود الواعي، ووجود البشر هو تطوّر حياتهم الواقعية» [ماركس، الأيديولوجية الألمانية، ص 30].

فإنّ الأخلاق والدين والميتافيزيقا وكلّ البقية الباقية من الأيديولوجيا ـ بحسب تعبير ماركس ـ وكلّ أشكال الوعي الّتي تقابلها هو وجود البشر وحياتهم، فليس الوعي هو الّذي يعيّن الحياة، بل الحياة هي الّتي تعيّن الوعي» [المصدر السابق].

هٰذا وقد حلّ العقل الجمعي أو الوعي الاجتماعي محلّ العقل الفردي عند إميل دوركايم، واستعاض عن الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة بسوسيولوجيا المعرفة والعوامل الاجتماعية، وذٰلك بعد تأليهه للمجتمع، وقوله بالوصال الوثيق بين المقولات والعقل الجمعي [قباري، الفلسفة في ضوء علم الاجتماع، ص 42 و43؛ السكري، نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، ص 80 و81]، وإنها قد ولدت في المجتمع ونبعت منه، وهو المسؤول عن تغذية الإنسان بالمعرفة والعلم؛ وذٰلك «إنّما يكون بإحلال مثلٍ أعلى جمعيٍّ مكانه ـ العقل الفردي ـ أي مثل أعلى يعبّر عن حالة شاملة أكثر ما يكون الشمول، لا تعبيرًا تقتصر دلالته على حالة شخصية خاصّة» [دوركايم، علم اجتماعٍ وفلسفة، ص 115 و116].

إنّ الحقل الّذي يشيّده دوركايم للمعرفة ليس العقل الشخصيّ، بل هو المجتمع الّذي يشكّل من وجهة نظره واقعًا قائمًا بذاته له شعوره الخاصّ الّذي يتبلور عن طريق التفاعل بين الأفراد، فإنّ ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيّين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على

الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم، فهٰذه الضروب أشياء ذات وجود قائم بنفسه، ويجدها الفرد تامّة التكوين منذ ولادته، وهو لا يستطيع القضاء عليها أو تغيير طبيعتها؛ ولذا يجبر على أن يحسب لها حسابها، وإنّه لمن العسير عليه كلّ العسر أن يغيّر أشكالها؛ وذٰلك لأنّها تساهم إلى حدٍّ ما في خلق كلّ النفوذ المادّي والأدبي الّذي يباشره المجتمع على أفراده» [انظر: دوركايم، إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ص 42 و43؛ السيد، علم اجتماع المعرفة، ص 253 و254].

وتمثّل آراء ماركس ودوركايم المتلاحقين زمنيًّا تحوّلًا نوعيًّا في مسار النظريّات الّتي تعرّضت إلى علاقة المعرفة بالمجتمع، واستبدال سطوة العقل الفرديّ والقبليّات الذهنية على نظرية المعرفة في رسم مجال علم الاجتماع المعرفي.

خاتمةٌ في أهمّ الانتقادات الّتي واجهها علم الاجتماع المعرفيّ

رغم الإفاضة الّتي قدّمها مشيّدو سوسيولوجيا المعرفة وداعموها، إلّا أنّه واجه جملةً من العقبات والانتقادات، وهو ما سنحاول الإشارة إليه هنا بما تسمح بها طبيعة هٰذا المقال، حيث تعرّض هٰذا العلم إلى نوعين من الإشكالات: الأوّل فنّيّة عامّة وإشكالات خاصّة ببعض الآراء والنظريات الّتي جاءت فيه.

النوع الأول: الانتقادات والمناقشات المتعلّقة بالبعد الفنّي لهٰذا العلم، وهي انتقادات عامّة تطال علم الاجتماع المعرفي برمّته، ولا تتعلق بمدرسة سوسيولوجية دون أخرى ولا بمذهبٍ أو رأيٍ دون آخر، إذ إنّ سوسيولوجيا المعرفة ليست سوسيولوجيا واحدةً تقوم بالتعاطي مع المعرفة بمنهج واحدٍ

وأدواتٍ واحدةٍ، بل هناك عدّة نظريات وآراء لاحقها ينقد سابقها، كما هو حال الانتقادات الّتي أوردها كارل مانهايم على نظريات كارل ماركس عندما أخذ عليه حصر تأثّر الوعي بالطبقات الاجتماعية الّذي يتبلور انعكاسًا للعامل الاقتصادي وظروف الإنتاج والسيطرة الاقتصادية، وقال بضرورة إشراك سائر الفئات الاجتماعية وكلّ الأجيال والجماعات المهنية. [مانهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا، ص 319]

وفي ظلّ هٰذا التعدّد في الآراء والنظريات المتضاربة، قد نكون أمام علمٍ لا يخلو من غموض أو تشويش أحيانًا، وذٰلك ربّما سيضعف من قوّته وتماسكه. ويسهم في ضمور بعض معالمه والخطوط البيانية العامّة له.

النوع الثاني: هناك انتقاداتٌ خاصّةٌ تتعلّق ببعض الآراء والنظريات الواردة دون الآراء والنظريات الأخرى، والّتي سلّطت الضوء على بيان علاقة المجتمع بالوعي وارتباط الواقع الخارجي بالمعرفة، ويمكن إيجاز هٰذه الانتقادات بما يلي:

1ـ أنّ الآراء والأقوال الّتي جاء بها بعض من تناول علاقة المجتمع بالمعرفة توقع الفكر في محذور النسبيّة، ومعلومٌ أنّها تفسد المعرفة وتبدّد اليقين، وتوقع وعي الإنسان في متاهاتٍ مظلمةٍ. بتقريب أنّ الاعتماد على العنصر الاجتماعي المتغيّر والمتبدّل بحسب الظروف والأحيان، سوف يقدح مباشرةً في استقرار المعرفة وديموتها، وسوف يجعل من موضوع الإدراك والوعي أداةً مرهونةً وخاضعةً للواقع الاجتماعيّ الخارجيّ المتغيّر بطبيعة الحال.

2ـ أنّ بعض النظريّات الّتي جاء بها علم اجتماع المعرفة تفضي إلى الجبر وسلب حرّيّة الإنسان في الاختيار، وتحوّله إلى مخلوقٍ مأسورٍ ـ من

الناحية المعرفية ـ للظروف والعادات والعوامل الاجتماعية القاهرة، وستقتل فيه كلّ بوادر الإبداع والتكامل.

3ـ أغلب ما ذكر من نظرياتٍ وآراء حول التبلور البيئي والاجتماعي للمعرفة عبارةٌ عن رؤًى وأفهامٍ خاليةٍ من الدليل والبرهان. أجل، أقصى ما يتمّ تداوله هو تقديم جملة من الاعتراضات على المعرفة العقلية، وقصور العقل لوحده على خلق المعارف وصناعتها.

4ـ تغييب البعد الغيبي والجانب الماورائي في بلورة المعرفة ومصدريتها، ورفض بعض ما هو عقلي وقبلي من دون دليلٍ واضحٍ، وإهمال المنطق والأسس الفلسفية في التعاطي مع المعرفة، في مقابل ذٰلك ألّهت بعض أطروحات سوسيولوجيا المعرفة التجارب البشرية، واعتمدت عليها بشكلٍ مطلقٍ في صناعة المعرفة، مع ما فيها من قصور واختلاف في الأزمنة والأمكنة، والمغالاة كثيرًا في تأثير البعد المادّي والعنصر الاجتماعي على الوعي الإنساني.

6ـ أنّ الآراء والنظريات الّتي تبنت شرح علاقة المعرفة بالمجتمع، لم تهتم بإصابة حقيقة الواقع ونفس الأمر، ولم تتعرض إلى ضرورة بلوغ كبد الحقيقة في لوح الواقع. وهٰذا يشكل خطأً فادحًا وكبيرًا في منهج هٰذا العلم، بخلاف ما يراه الحكماء ورواد المنهج البرهاني الأرسطوطاليسي الّذين دائمًا ما يؤكّدون على أن ما تنشده المعرفة ومديات الوعي هو الحصول على الحقيقة كما هي في الواقع ونفس الأمر؛ وإهمال هٰذا الجانب والتركيز على ما يتمخّض عن المجتمع من معرفةٍ ووعيٍ وعلمٍ سيفقدنا ـ رغم كلّ ما يذكره السوسيولوجيون من مبرّراتٍ ـ الكثير من قيمة المعرفة واعتبارها.

7ـ من الإشكالات الأخرى المهمة الأخرى الّتي يمكن تساق هنا أيضًا

هو أنّ المتبنّيات الاجتماعية وعناصرها المؤلّفة للمعرفة لا تعدو سوى قضايا مشهورةٍ قائمةٍ على الشهرة والذيوع بين الناس بحسب التصنيف المنطقي، وهي موادّ توظّف للجدل عند التخاطب والتساجل اللفظي والكلامي، وقد تمّ في المنطق تحرير أنّ مثل هٰذه القضايا لا توصل إلى اليقين، بل إلى الظنّ، والظنّ لا يغني من الحقّ شيئًا.

قائمة المصادر

1. ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بروت ـ لبنان، 2001 م.
2. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، موسوعة الفلسفة، ذوي القربى، قم ـ ايران، الطبعة الأولى، 1427 هـ.
3. بوبر، كارل، المجتمع المفتوح وأعداؤه، ترجمة: حسام نايل، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 2015 م.
4. بورّيكو، رـ بورون وف، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر، الطبعة الأولى، 1986 م.
5. توكل، محمد و ديگران، جامعه شناسى معرفت (علم اجتماع المعرفة) جستارى در تبيين رابطه "ساخت و كنش اجتماعى" و "معرفت بشرى"، پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، تهران، چاپ چهارم، زمستان 1390 ش.
6. الجبوري، شفيق إبراهيم، علم اجتماع المعرفة عند ابن خلدون، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى، 2012 م.
7. دوبوا، ميشال، مدخل إلى علم اجتماع العلوم، ترجمة: سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.
8. دوركايم، إميل، علم اجتماع وفلسفة، ترجمة الدكتور أنيس حسن، مكتبة

الإنجلو المصرية، القاهرة ـ مصر، الطعبة الأولى، 1966 م.

9. سالم، علي، ملفّ المثقّف والسلطة ـ الجانب النظري، قراءة في نظرية المعرفة عند كارل ماركس.

10. السكري، عادل، نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة، الطبعة الأولى، 1999 م.

11. السيد، عبد العاطي، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ـ مصر، الطبعة الأولى.

12. غورفيتش، جورج، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2008 م.

13. الفارابي، أبو نصرٍ محمد بن طرحان، المنطقيات للفارابي، مكتبة آية الله المرعشي.

14. قباري، محمد إسماعيل، الفلسفة في ضوء علم الاجتماع، دار الكتب الجامعية.

15. ماركس، كارل، الأيديولوجية الألمانية، تعريب: فؤاد أيوب، دار دمشق، الطبعة الأولى، 1976 م.

16. مانهايم، كارل، الأيديولوجيا واليوتوبيا.. مقدّمةٌ في سوسيولوجيا المعرفة، ترجمة: محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، الطبعة الأولى، 1980 م.

17. المسيري، عبد الوهاب محمد، الأيديولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (مجلّة عالم المعرفة).

18. وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة ـ مصر، 2007 م.